الفصل الثامن
صلح الْحُدَيْبِيَةِ
ذو القعدة ٦ هـ - مارس ٦٢٨م

المبحث الأول
ملخص الأحداث

وكان من أمرها أن رسول الله ﷺ رأى في منامه أنه دخل البيت هو وصحابته آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون شيئا، فأمر الناس أن يتجهزوا للخروج إلى مكة

obeikandl.com

معتمرين، لا يريد حربًا لقريش ولا قتالاً، فخرج معه المهاجرون والأنصار يحدوهم الشوق إلى رؤية بيت الله الحرام بعد أن حرموا من ذلك ست سنوات، وخرج معهم من شاء من الأعراب، وخاف أكثرهم من خطورة الرحلة، وساق أمامه ﷺ الهدي وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة (آبار علي)، ليعلم العالم وقريش خاصة أنه لا يريد قتالاً، وسار حتى وصل إلى «عسفان» جاء من يخبره برفض قريش قدوم المسلمين إلى مكة للعمرة ، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور يحلفون بالله لا يدخلها عليهم أبدا .. فلما وصل الرسول الحديبية١، (الشميسي حاليًا على طريق جدة) وهناك ..أرسلت قريش مجموعها من رجالات العرب تستبين أمر المسلمين، وكان على رأس من أرسلتهم قريش : بديل بن ورقاء الخزاعي سيد خزاعة، مِكْرَز بْنَ حَفْصٍ، الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ سيد الأحابيش، وعُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ سيد ثقيف، هؤلاء الزعماء من الطبيعي تواجدهم في مكة في هذا الوقت حيث موسم الحج .

و بعث الرسول ﷺعثمان بن عفان إلى أهل مكة ليؤكد لهم الغرض من مجيء الرسول وصحابته، وأبطأ عثمان، فأشيع بين المسلمين أنه قد قتل، فدعا المسلمين إلى البيعة على الجهاد، والشهادة في سبيل الله، فبايعوه على الموت وعدم الفرار، ولما علمت قريش بأمر البيعة، خافوا ورأوا الصلح معه على أن يرجع هذا العام ويعود من قابل فيقيم ثلاثًا معه سلاح الراكب: الرماح والسيوف في أغمادها، وأرسلت قريش لذلك سهيل بن عمرو ليتم هذا الصلح، وأخيرا تم هذا الصلح، على ما رغبت قريش، وعلى وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين، وأن من أتى من عند محمد إلى مكة لم يردوه، وأن من أتى محمدا من مكة ردوه إليهم، فعز ذلك على المسلمين، وأخذ بعضهم يجادل النبي ﷺ فيما جاء من شروطها، ثم أمر الرسول أصحابه بالتحلل من العمرة فلم يفعلوا ذلك في موجة من الألم، لما حيل بينهم وبين دخول مكة، ولما شق عليهم من شروط الصلح فبادر بنفسه، فتحلل من العمرة، فتبعه المسلمون جميعًا، وقد ظهرت فيما بعد فوائد هذه الشروط التي صعبت على المسلمين ورضي بها الرسول، لبعد نظره ورجحان عقله، وإمداد الوحي له بالسداد في الرأي والعمل. هذا وقد سمى الله هذه الغزوة فتحًا مبينًا٢ .

---

١ تبعد عن مكة بحوالي ٢٢ كم

٢ انظر تفاصيل أحداث صلح الحديبية: ابن هشام: ٣/ ٣٢١، والواقدي ٣٨٣، ابن سعد ٢ / ١-٦٩، الطبري ٣/ ٧١، البلاذري : أنساب الأشراف ١/ ١٦٩، ابن سيد الناس ٢/ ١١٣، ابن كثير ٤/ ١٦٤، ابن القيم :

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : أهمية الجانب الإعلامي المنضبط بضوابط الأخلاق :

اسْتَنْفَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْعَرَبَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي مِنْ الْأَعْرَابِ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ وَهُوَ يَخْشَى مِنْ قُرَيْشٍ ، أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدّوهُ عَنْ الْبَيْتِ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ الْأَعْرَابِ ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهّ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنْ الْعَرَبِ ، ولم يخرج معه بسلاح إلا السيوف في القرب،

وأخرج معه زوجته أم سلمة-رضي الله عنها -١، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ لِيَأْمَنَ النّاسُ مِنْ حَرْبِهِ وَلِيَعْلَمَ النّاسُ أَنّهُ إنّمَا خَرَجَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ وَمُعَظّمًا لَهُ٢ .

وخَرَجَ النَّبِيُّ - ﷺ فِي ألف وخمس مائة مِنْ أَصْحَابِهِ٣، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ نُمَيْلَةُ بْنُ عَبْدِ اللهّ اللّيْثِيّ٤ . فَلَمّا أَتَى النَّبِيُّ ذَا الْحُلَيْفَةِ (آبار علي)، قَلَّدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ، وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ وراء عسفان، أَتَاهُ عَيْنُهُ قَالَ: إنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ ، وَمَانِعُوكَ. فَقَالَ :

" أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ ! أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنْ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ ؟" .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهَّ ،خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ!

زاد المعاد ٢/ ٣٠١، المقريزي ٢٧٤،ابن حزم : جوامع السيرة ٢٠٧، ومصطفى السباعي ٦٨، ومحمد الغزالي ٢٤٧، وصفي الرحمن المباركفوري ٢٦٢، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٢٦٨

١ ابن سعد ٢ / ٩٥

٢ ابن هشام ٢ / ٣٠٧

٣ انظر : صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية (٣٨٣٨)

٤ ابن هشام ٢ / ٣٠٧

قَالَ : "امْضُوا عَلَى اسْمِ اللهِّ" ١ .

وفي هذا الموقف نرى أن رسول الله أعلن عن قصده أداء العمرة ليضع قريش في موقف محرج أمام العرب، وليقلل من هيبتها أمام العرب إعلاميًا ..

فقريش في حقيقة الأمر يصعب عليها أن تسمح للمسلمين أن يدخلوا مكة آمنين لأداء العمرة وقد فعلوا ما فعلوا في بدر بسادات مكة.

كما يصعب على قريش أيضًا أن تمنع من قصد البيت معظمًا له ..

وبين السماح والمنع يتمهد الطريق لصلح أو معاهدة تمنح المسلمين انطلاقة عالمية ومرحلة دعوية رغيدة وغنية بالانتصارات ...

المطلب الثاني : الطريق إلى الحديبية ورغبة جادة في الصلح :

خَرَجَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ حَتّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ لَقِيَهُ بِشْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيّ – فَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللهِّ هَذِهِ قُرَيْشٌ ، قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِك ، فَخَرَجُوا مَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النّمُورِ وَقَدْ نَزَلُوا بِذِي طُوًى ، يُعَاهِدُونَ اللهِّ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ قَدْ قَدّمُوهَا إلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ .

قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ :

"يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ !! لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ الّذِي أَرَادُوا ، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُّ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوّةٌ فَمَا تَظُنّ قُرَيْشٌ ، فَوَاَللهِّ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الّذِي بَعَثَنِي اللهُّ بِهِ حَتّى يُظْهِرَهُ اللهُّ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السّالِفَةُ ! " .

ثُمّ قَالَ :

" مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ الّتِي هُمْ بِهَا؟"٢.

فقال رجل من المسلمين :

أَنَا يَا رَسُولَ اللهِّ .

فَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقًا وَعْرًا أَجْرَلَ بَيْنَ شِعَابٍ فَلَمّا خَرَجُوا مِنْهُ وَقَدْ شَقّ ذَلِكَ عَلَى

---

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية (٣٨٦٠)، ابن القيم : زاد المعاد – ٣ / ٢٥٧

٢ ابن هشام ٢ / ٣٠٩

الْمُسْلِمِينَ وَأَفْضَوْا إِلَى أَرْضٍ سَهْلَةٍ عِنْدَ مُنْقَطَعِ الْوَادِي، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلنّاسِ :

"قُولُوا نَسْتَغْفِرُ اللهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ" ..

فَقَالُوا ذَلِكَ..

فَقَالَ : " وَاَللهِ إِنّهَا لَلْحِطّةُ الّتِي عُرِضَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمْ يَقُولُوهَا" .

فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النّاسَ فَقَالَ :

" اُسْلُكُوا ذَاتَ الْيَمِينِ بَيْنَ ظَهْرَيْ الْحَمْشِ ، فِي طَرِيقٍ (تُخْرِجُهُ) عَلَى ثَنِيّةِ الْمُرَارِ مَهْبِطِ الْحُدَيْبِيَةِ مِنْ أَسْفَلِ مَكّةَ " .

فَسَلَكَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الطّرِيقَ فَلَمّا رَأَتْ خَيْلُ قُرَيْشٍ قَتَرَةَ الْجَيْشِ قَدْ خَالَفُوا عَنْ طَرِيقِهِمْ رَجَعُوا رَاكِضِينَ إِلَى قُرَيْشٍ ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتّى إِذَا سَلَكَ فِي ثَنِيّةِ الْمُرَارِ بَرَكَتْ نَاقَتُهُ ..

فَقَالَتْ النّاسُ : حل حل ! خلأت القصواء ! خلأت القصواء !

قَالَ : "مَا خَلَأَتْ وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكّةَ . لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صِلَةَ الرّحِمِ إِلّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيّاهَا "١ .

وفي هذا المشهد نرى ونلمس رغبة جادة من القائد الإسلامي في مشروع اتفاقية صلح تضع على أثرها الحرب أوزارها .

وع رغبته الأكيدة في الصلح لا يتنازل عن مبدأه الإصلاحي في نشر الدعوة الخير ولو على حساب حياته، أكد ذلك أيضًا في جملة قوية شديدة : " فَوَاَللهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الّذِي بَعَثَنِي اللهُ بِهِ حَتّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السّالِفَةُ !"

المطلب الثالث: مناوشات سياسية وفقه التعامل مع رجالات العدو:

حدث ان قريشًا أرسلت عددًا من قيادات العرب إلى المسلمين لجس النبض تارة وللاستفزاز تارة أخرى، فأرسلوا بديل بن ورقاء ومِكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ والْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ وعروة بن مسعود الثقفي ..

وتجلت حكمة القيادة الإسلامية وقدرتها البارعة في كيفية التعامل مع كل قائد من

---

١ ابن هشام ٢ / ٣٠٩، ابن سعد ٢ / ٩٦، والحلبي ٢/ ٦٨٨، وابن حزم : جوامع السيرة ٢٠٨)، وسنن أبي داود ٢٧٦٥، وصححه الألباني في: صحيح وضعيف سنن أبي داود - (ج ٦ / ص ٢٦٥)

هؤلاء القادة على اختلاف توجهاتهم وتباين معادنهم ..

أولاً: بديل بن ورقاء الخزاعي:

لما نزل رسول الله ﷺ بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي فِي رِجَالٍ مِنْ خُزَاعَةَ..

فَكَلَّمُوهُ وَسَأَلُوهُ مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ ؟ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْبًا ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ وَمُعَظِّمًا لِحُرْمَتِهِ .. فَرَجَعُوا إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ ! إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ ! وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتَ .. فَقَالُوا : وَإِنْ كَانَ جَاءَ وَلَا يُرِيدُ قِتَالًا ، فَوَ اللهِ لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبَدًا ، وَلَا تَحَدَّثَ بِذَلِكَ عَنَّا الْعَرَبُ. وَكَانَتْ خُزَاعَةُ عَيْبَةَ١ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُسْلِمُهَا وَمُشْرِكُهَا ، لَا يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِمَكَّةَ٢ .

وفي هذا الموقف تعاملت القيادة الإسلامية مع بديل بن ورقاء بكل موضوعية وشفافية اعتمادًا على سلامة المقصد والعلاقة القديمة الطيبة بين خزاعة وبني هاشم .. ومن ثم انحازت خزاعة إلى صف رسول الله ﷺ ومارست نوعًا من الضغط على قريش حتى تسمح للمسلمين بأداء عمرتهم ..

وهو أمر في غاية الأهمية أن يكون للقائد علاقاته الطيبة وصلاته الوثيقة بالجماعات والدول التي من الممكن جذبها إلى موقف الحياد ..

لقد نبي الرحمة ﷺ هذه النظريات السياسية المستحدثة.. تلك النظريات التي تشدد على أهمية وجود علاقة قوية بين القائد والجهات المحايدة في صراعه مع عدوه ..

ثانيًا : مِكْرَزبْنَ حَفْصٍ:

ثُمّ بَعَثُوا إِلَيْهِ ﷺ مِكْرَزَ بْنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخْيَفِ ، فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا قَالَ : "هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ !"

فَلَمّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَلّمَهُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَحْوًا مِمّا قَالَ لِبُدَيْلٍ وَأَصْحَابِهِ فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ٣ .

وفي قول القائد الحكيم ﷺ : "هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ !".. تأكيد على أهمية معرفة القائد

---

١ أي خاصته وأصحاب سره.

٢ ابن هشام ٢ / ٣١١، ابن سعد ٢ / ٩٦

٣ ابن هشام ٢ / ٣١٢

برجالات العدو وطبيعة كل قائد من القيادات البارزة في صفوف الأعداء ..

إنه يعرف أن " مكرزًا " رجل غدر ، وأن " الحليس" رجل تدين يعظم الشعائر والمناسك. إنها القيادة الإسلامية التي تكشف بعين بصيرتها صفة رموز العدو ومن ثم يختار الأسلوب الأمثل والطريق الأجدر في التعامل مع هذه الرموز .

ثالثًا : الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ :

ثُمّ بَعَثُوا إلَيْهِ الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيّدَ الْأَحَابِيشِ ، وَهُوَ أَحَدُ ؛ فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ اللهﷺقَالَ :

"إنّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتّى يَرَاهُ " .

فَلَمّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضِ الْوَادِي فِي قَلَائِدِهِ وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحِلّهِ رَجَعَ إلَى قُرَيْشٍ ، وَلَمْ يَصِلْ إلَى رَسُولِ اللهّ ﷺ إعْظَامًا لَمَا رَأَى ، فَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ . قَالَ فَقَالُوا لَهُ: اجْلِسْ فَإِنّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيّ لَا عِلْمَ لَكَ .

وغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَاَللهّ مَا عَلَى هَذَا حَالَفْنَاكُمْ ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ . أَيُصَدّ عَنْ بَيْتِ اللهّ مَنْ جَاءَ مُعَظّمًا لَهُ ؟ ! وَالّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ لَتُخَلّنّ بَيْنَ مُحَمّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ أَوْ لَأَنْفِرَنّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ !!

فَقَالُوا لَهُ : مَهْ كُفّ عَنّا يَا حُلَيْسُ حَتّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ١ .

في هذا المشهد نرى القائد الإسلامي يضرب على وتر التدين ليؤثر على الحليس الذي عُرف بتعظيمه لشعائر البيت الحرام، فقدم رسول الله ﷺ الهدي ليراه الحليس، ومن ثم تحول الخصم إلى حليف بفضل القائد الإسلامي الحصيف.

رابعًا : عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ :

ثُمّ بَعَثُوا إلَى رَسُولِ اللهّ ﷺ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ :

إنّي قَدْ رَأَيْت مَا يَلْقَى مِنْكُمْ مَنْ بَعَثْتُمُوهُ إلَى مُحَمّدٍ إذْ جَاءَكُمْ مِنْ التّعْنِيفِ وَسُوءِ اللّفْظِ... وَقَدْ سَمِعْت بِالّذِي نَابَكُمْ فَجَمَعْتُ مَنْ أَطَاعَنِي مِنْ قَوْمِي ، ثُمّ جِئْتُكُمْ حَتّى آسَيْتُكُمْ بِنَفْسِي ..

قَالُوا : صَدَقْت ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتّهَمٍ .

---

١ ابن هشام ٢ / ٣١٢، ابن سعد ٢ / ٩٦

فَخَرَجَ حَتّى أَتَى رَسُولَ اللهّ ﷺ فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ قَالَ : يَا مُحَمّدُ أَجَمَعْتَ أَوْشَابَ النّاسِ ثُمّ جِئْتَ بِهِمْ إلَى بَيْضَتِك لِتَفُضّهَا بِهِمْ .. إنّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ . قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النّمُورِ يُعَاهِدُونَ اللهّ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً أَبَدًا . وَايْمُ اللهّ لِكَأَنّي بِهَؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْك غَدًا .

وَأَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ خَلْفَ رَسُولِ اللهّ ﷺ قَاعِدٌ فَقَالَ: اُمْصُصْ بَظْرَ اللّاتِي ، أَنَحْنُ نَنْكَشِفُ عَنْهُ[1] ؟

قَالَ : مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ ؟ .

قَالَ : "هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ" .

قَالَ: أَمَا وَاَللهّ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَك عِنْدِي لَكَافَأْتُك بِهَا ، وَلَكِنْ هَذِهِ بِهَا.

ثُمّ جَعَلَ يَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ رَسُولِ اللهّ ﷺ وَهُوَ يُكَلّمُهُ . وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهّ ﷺ فِي الْحَدِيدِ . فَجَعَلَ يَقْرَعُ يَدَهُ إذَا تَنَاوَلَ لِحْيَةَ رَسُولِ اللهّ ﷺ وَيَقُولُ : اُكْفُفْ يَدَك عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهّ ﷺ قَبْلَ أَنْ لَا تَصِلَ إلَيْك!!

فَيَقُولُ عُرْوَةُ: وَيْحَك مَا أَفَظّكَ وَأَغْلَظَك !!

فَتَبَسّمَ رَسُولُ اللهّ ﷺ

فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ : مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ ؟

قَالَ : "هَذَا ابْنُ أَخِيك الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ "

قَالَ: أَيْ غُدَرُ وَهَلْ غَسَلْتُ سَوْأَتَك إلّا بِالْأَمْسِ[2] ...

وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمّ جَاءَ فَأَسْلَمَ . فَقَالَ النّبِيّ ﷺ أَمّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ وَأَمّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ[3]، فأدى عروة هذه الدية .. ثَلَاثَ عَشْرَةَ دِيَةً- عدة المقتولين - وَأَصْلَحَ ذَلِكَ الْأَمْرَ[4] .

هذا، وَكَلّمَهُ رَسُولُ اللهّ ﷺ بِنَحْوٍ مِمّا كَلّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ وَأَخْبَرَهُ أَنّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْبًا. فَقَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهّ ﷺ وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ لَا يَتَوَضّأُ إلّا ابْتَدَرُوا وُضُوءَهُ

---

١ ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ٢٥٧ ، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٣١

٢ ابن هشام ٢/ ٣١٢، ابن القيم : زاد المعاد – ٣/ ٢٥٧

٣ ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ٢٥٧ ، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٣١

٤ ابن هشام ٢/ ٣١٢، ابن القيم : زاد المعاد – ٣/ ٢٥٧

وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا إلّا ابْتَدَرُوهُ . وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إلّا أَخَذُوهُ . فَرَجَعَ إلَى قُرَيْشٍ ، فَقَالَ:

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنّي قَدْ جِئْت كِسْرَى فِي مُلْكِهِ ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ . وَالنّجَاشِيّ فِي مُلْكِهِ . وَإِنّي وَاَللهّ مَا رَأَيْت مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطّ مِثْلَ مُحَمّدٍ فِي أَصْحَابِهِ وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا ، فَرَوْا رَأْيَكُمْ١ .

في هذا الموقف عرف رسول الله -ﷺ- تأثر " عروة" ببهرجات ومظهرات الملوك - لاسيما علمه برحلات عروة السابقة إلى ملوك الفرس والروم والحبشة- فأراد رسول الله أن يؤثر على عروة من هذا الباب ..

ولم كان عروة في موقف زهول وإعجاب وهو يرى توقير الصحابة وحبهم وعنايتهم لرسول الله ﷺ إلى الدرجة التي قال فيها عروة : "وَاَللهّ مَا رَأَيْت مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطّ مِثْلَ مُحَمّدٍ فِي أَصْحَابِهِ وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا ، فَرَوْا رَأْيَكُمْ" ..

المطلب الثالث : مبادرات حكيمة وسياسة ضبط النفس :

مبادرة أولى :

ثم أَنّ رَسُولَ اللهّ ﷺ دَعَا خِرَاشَ بْنَ أُمَيّةَ الْخُزَاعِيّ ، فَبَعَثَهُ إلَى قُرَيْشٍ بِمَكّةَ وَحَمَلَهُ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ الثّعْلَبُ لِيُبَلّغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ لَهُ، فَعَقَرُوا بِهِ جَمَلَ رَسُولِ اللهّ ﷺ وَأَرَادُوا قَتْلَهُ فَمَنَعَتْهُ الْأَحَابِيشُ ، فَخَلّوْا سَبِيلَهُ حَتّى أَتَى رَسُولَ اللهّ ﷺ٢ .

مبادرة ثانية :

وأرسلت قريش بأَرْبَعِينَ من الرجال ، وَأَمَرُوهُمْ أَنْ يُطِيفُوا بِعَسْكَرِ رَسُولِ اللهّ ﷺ لِيُصِيبُوا لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا ، فَأُخِذُوا أَخْذًا ، فَأُتِيَ بِهِمْ رَسُولَ اللهّ ﷺفَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلّى سَبِيلَهُمْ و قَدْ كَانُوا رَمَوْا فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللهّ ﷺبِالْحِجَارَةِ وَالنّبْلِ٣ .

مبادرة ثالثة :

وطلب النبي من عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ أن يذهب إلَى مَكّةَ ، فَيُبَلّغُ عَنْهُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ ..فَقَالَ عمر – ناصحًا قائده :

---

١ ابن هشام ٢ / ٣١٢

٢ ابن هشام ٢ / ٣١٤

٣ ابن هشام ٢ / ٣١٤

يَا رَسُولَ اللهّ إنّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي ، وَلَيْسَ بِمَكّةَ مِنْ بَنِي عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي ، وَقَدْ عَرَفَتْ قُرَيْشٌ عَدَاوَتِي إيّاهَا ، وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا ، وَلَكِنّي أَدُلّك عَلَى رَجُلٍ أَعَزّ بِهَا مِنّي ، عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ .

فَدَعَا رَسُولُ اللهّ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ..

وقال له : "اذهب إلى قريش فأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد وإنما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته، معنا الهدي ننحره وننصرف"١ .

وَبَعَثَهُ بذلك إلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، يُخْبِرُهُمْ بذلك٢ .

في هذه المبادرات النبوية الحكيمة نرى فيها قدرة القيادة الإسلامية الكريمة على استخدام سياسة ضبط النفس بمهارة فائقة .. فلو تسرعت القيادة في مثل هذه المواقف الثلاثة بالرد المسلح على استفزازات العدو لتحول " حادث الحديبيبة" في التاريخ إلى ملحمة دموية ومأساة ضخمة في أرض الحرم .

إن استخدام رسول الله ﷺ لسياسة ضبط النفس في هذه المواقف الثلاثة بالذات يعد من أهم الأسباب المباشرة لنجاح صلح الحديبية العظيم.. ذلك الصلح الذي قدم للدعوة أضخم خدمة وأكبر فرصة للاتطلاق برسالة الإسلام في أرجاء المعمورة.. وانتقال دعوة الإسلام من الطابع الإقليمي إلى الطابع العالمي الدولي.

المطلب الرابع : إشَاعَةُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ :

فَخَرَجَ عُثْمَانُ إلَى مَكّةَ ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حِينَ دَخَلَ مَكّةَ ، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا ، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ أَجَارَهُ حَتّى بَلّغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللهّ ﷺ، فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ حَتّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظَمَاءَ قُرَيْشٍ ، فَبَلّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللهّ ﷺ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ فَقَالُوا لِعُثْمَانِ حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ اللهّ –ﷺ–إلَيْهِمْ: إنْ شِئْت أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ .

فَقَالَ – مبجلاً سيد النبيين – : " مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللهّ ﷺ ." !!

ليضرب المثل كيف تكون علاقة الجندي بقائده أمام الأعداء.. إنها علاقة التوقير والإجلال للقيادة الإسلامية حال غيبتها أمام أعداء الله ..

و من ثم احْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللهّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنّ عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ

---

١ ابن سعد ٢ / ٩٧

٢ ابن هشام ٢ / ٣١٤

قَدْ قُتِلَ١ .وانتشرت الإشاعة .. ويبدو من ذلك وجود أطراف قرشية حقادة، تبغي من وراء ذلك نشوب الحرب والفتنة .

ولا شك أن انتشار الإشاعات دائما ما يشتد حال الأوقات الحرجة والمواقف الفاصلة وساعات الفتن ..

ومن ثم كان على جند الله التثبت والتحفظ على هذه الإشاعات ..

وكان على القيادة الإسلامية الاستفادة من موجة الإشاعات – التي هي من صنع المغرضين – ..

وكيف استغلها قائدنا الحكيم ورسولنا المعلم المربي – صلوات الله وسلامه عليه – ؟

إنه انتهز هذه الفرصة في توحيد الصف وتقوية العزم وأخذ البيعة على الموت . ولذلك كانت إشاعة مقتل عثمان في صالح المعسكر الإسلامي مئة بالمئة !

المطلب الخامس : بَيْعَةُ الرّضْوَانِ

و قَالَ رَسُولَ اللهّ ﷺحِينَ بَلَغَهُ أَنّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ :

"لَا نَبْرَحُ حَتّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ " .

فَدَعَا رَسُولُ اللهّ ﷺالنّاسَ إلَى الْبَيْعَةِ فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرّضْوَانِ تَحْتَ الشّجَرَةِ ، فَكَانَ النّاسُ يَقُولُونَ بَايَعَهُمْ رَسُولُ اللهّ ﷺ عَلَى الْمَوْتِ و عَلَى أَنْ ألا يفرروا . وَلَمْ يَتَخَلّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَهَا ، إلّا الْجَدّ بْنَ قَيْسٍ أَخُو بَنِي سَلِمَةَ ..

فَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهّ يَقُولُ :

وَاَللهّ لَكَأَنّي أَنْظُرُ إلَيْهِ لَاصِقًا بِإِبْطِ نَاقَتِهِ . قَدْ ضَبَأَ إلَيْهَا ، يَسْتَتِرُ بِهَا مِنْ النّاسِ .

ثُمّ أَتَى رَسُولَ اللهّ ﷺأَنّ الّذِي ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ عُثْمَانَ بَاطِلٌ٢، وإنما هي إشاعة مغرضة .

وكان أَوّلَ مَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللهّ ﷺبَيْعَةَ الرّضْوَانِ أَبُو سِنَانٍ الْأَسَدِيّ.

كما أَنّ رَسُولَ اللهّ ﷺبَايَعَ لِعُثْمَانِ فَضَرَبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى٣ . وقال:" إنه

---

١ ابن هشام ٢ / ٣١٥

٢ ابن هشام ٢ / ٣١٥

٣ ابن هشام – ٢ / ٣١٥

ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله"١

وعن يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ : قُلْتُ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ:

عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللهِّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ قَالَ: " عَلَى الْمَوْتِ"٢ .

وقال النبي ﷺ في فضل هذه البيعة :

" لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ"٣

إن مشهد البيعة الذي بلغ في رواياته مستوى التواتر ليدلل بواضح على جواز قيام القائد العسكري أن يأخذ البيعة على جنوده أو أن يجددها في إطار ما يخص ساحة القتال دون أن تتعدى حدود هذه البيعة إلى الشأن العام للأمة بحيث تضر بصلاحيات الإمام أو الخليفة أو رئيس الدولة الإسلامية..

وإذا أخذ القائد البيعة من جنوده على الموت أو عدم الفرار من ميدان القتال- إلا بإذنه-، فإن هذه البيعة ملزمة وتنفيذ شرطها واجب والإخلال بها خيانة وكبيرة من الكبائر ..

المطلب السادس : المفاوضات وآدابها :

ثُمّ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو ، أَخَا بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيّ ، إلَى رَسُولِ اللهّ ﷺ وَقَالُوا لَهُ ائْتِ مُحَمّدًا فَصَالِحْهُ وَلَا يَكُنْ فِي صُلْحِهِ إلّا أَنْ يَرْجِعَ عَنّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاَللهّ لَا تُحَدّثُ الْعَرَبُ عَنّا أَنّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبَدًا . فَأَتَاهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ اللهّ ﷺ مُقْبِلًا ، قَالَ قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرّجُل فَلَمّا انْتَهَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إلَى رَسُولِ اللهّ ﷺتَكَلّمَ فَأَطَالَ الْكَلَامَ وَتَرَاجَعَا ، ثُمّ جَرَى بَيْنَهُمَا الصّلْحُ٤ .

وعَنْ أَنَسٍ:

أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺفِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-لِعَلِيٍّ:

" اكْتُبْ بِسْمِ اللهِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " ..

قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ اللهِّ فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مَا

---

١ ابن سعد ٢ / ٩٧

٢ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٨٥١)

٣ مسند أحمد (١٤٧٢٥) عن جابر، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير(٩٣٥٤)

٤ ابن هشام ٢ / ٣١٦

نَعْرِفُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ !

فوافق النبي -ﷺ-

فَقَالَ: اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهَّ ...

قَالُوا : لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللهَّ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ : اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ١..

فَقَالَ النَّبِيُّ لِعَلِيٍّ: "امْحُهُ "

فَقَالَ: عَلِيٌّ مَا أَنَا بِالَّذِي أَمْحَوهُ، فَمَحَاهُ رَسُولُ اللهَّ ﷺ بِيَدِهِ...٢ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهَّ" . فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا ..

فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهَّ أَنَكْتُبُ هَذَا قَالَ : "نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُّ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللهُّ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا"٣

وصالحوه عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِ ..٤.

وَإِنّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ وَمَنْ أَحَبّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ٥ .

فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ .. فَقَالُوا : نَحْنُ فِي عَقْدِ مُحَمّدٍ وَعَهْدِهِ .وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا : نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ ..٦ .

وتم عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

١ – باسمك اللهم.

٢ – هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

---

١ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٣٣٣٧)

٢ صحيح البخاري، كتاب الصلح، بَاب كَيْفَ يُكْتَبُ هَذَا مَا صَالَحَ فلان بن فلان وفلان بن فلان وَإِنْ لَمْ يَنْسُبْهُ إِلَى قَبِيلَتِهِ أَوْ نَسَبِهِ، عن الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا (٢٥٠٠)

٣ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٣٣٣٧)

٤ صحيح البخاري، كتاب الصلح ، بَاب الصُّلْحِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ (٢٥٠١)

٥ ابن هشام ٢ / ٣١٧

٦ ابن هشام ٢ / ٣١٨

٣- واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٤- على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًّا أو معتمرًا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

٥- على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٦- وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال.

٧- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتوثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم).

٨- وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

٩- وعلى أن هذا الهدي ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا.

١٠- أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين١.

فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الْكِتَابِ أَشْهَدَ عَلَى الصّلْحِ رِجَالًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ :

أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ ، وَعَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ ، وَمَحْمُودُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، وَمِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَانَ هُوَ كَاتِبَ الصّحِيفَةِ٢ .

ونسخ الكتاب نسختين، فوضعت إحداهما عند رسول الله ﷺ، وأخذ الأخرى سهيل بن عمرو٣.

---

١ انظر: محمد حميد الله ، ٧٧ وما بعدها

٢ ابن هشام ٢ / ٣١٩

٣ البلاذري : أنساب الأشراف ١ / ١٥٣

إن مشهد المفاوضات وفعاليات الصلح التي جرت بين المعسكرين الإسلامي والوثني .. ليدلل بجلاء على مدى الحنكة السياسية التي يتمتع بها القائد الإسلامي وبعد نظره وثاقب فكره. ويسطر في ذاكرة التاريخ آدابًا سامية وأخلاقًا سامقة في التفاوض، يأتي في مقدمة هذه الآداب: عدم تشبث القيادة الإسلامية بشكليات الصلح أو مظهريات التفاوض، فقد تنازل رسول الله -ﷺ- عن كتابة البسملة القرآنية الكاملة في مسودة الصلح، ونزل على رغبة خصمه في كتابة " بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ " بدلاً من "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "، كما استجاب ﷺ لمطلب سهيل بن عمرو بحذف جملة " رَسُولِ اللَّهِ"، وعلل سهيل قائلاً : " لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ : اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ"..

إن مرونة القيادة الإسلامية في مثل هذه الشكليات - في مثل هذه المواقف - مهم جدًا ! إن تزمت قائد الجماعة المسلمة في مثل هذه المواقف لا يجدي نفعًا ويستهلك الوقت والجهد وقد يتسبب في إفشال الصلح ليتحول إلى حرب هوجاء، وقد عهد رسول الله هؤلاء العرب يتقاتلون على العنزة والبعرة وما على شاكلة ذالك من توافه الأسباب.

وفي الوقت الراهن نرى بعض الهيئات والجماعات الإسلامية تقع في خطأ التشبث بالشكليات والشعارات .. فعلى سبيل المثال، لما خاضت جماعة الإخوان المسلمين في انتخابات التجديد النصفي لمجلس الشورى عام ٢٠٠٧- وقد صدر من الحكومة المصرية قانونًا يحظر استخدام الشعارات الدينية أو الإسلامية أثناء الجولات الانتخابية – أعلنت جماعة الإخوان المسلمين تشبثها وتمسكها بشعارها " الإسلام هو الحل" .. وأنها ستخوض انتخابات الشورى تحت هذا الشعار مهما كانت النتائج والعواقب ..

إن مثل هذا التصرف لا يليق بهيئة إسلامية كبيرة عريقة .. وكان أحرى بها أن تتمثل موقف رسول الله في الحديبية لما تنازل عن كتابة " بسم الله الرحمن الرحيم " ، و " محمد رسول الله " من مسودة الصلح ...إضافة إلى قبوله ﷺ شروطًا في العقد في ظاهرها الإجحاف لكل ذي عين .. فالقيادة الإسلامية يعنيها الجوهر بالأخص لا المظهر.. ولا يجوز المغامرة بأرواح وأمن أفراد من المسلمين بسبب التشبث بهذه الشكليات والشعارات.

المطلب السابع : أزمة أبي جندل واحترام القيادة للعهود :

وَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺيَكْتُبُ الْكِتَابَ هُوَ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ

بْنِ عَمْرِو يَرْسُفَ فِي الْحَدِيدِ قَدْ انْفَلَتَ إِلَى رَسُولِ اللهّ ﷺوَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهّ ﷺ خَرَجُوا وَهُمْ لا يَشُكّونَ فِي الْفَتْحِ لِرُؤْيَا رَآهَا رَسُولُ اللهّ ﷺفَلَمّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنْ الصّلْحِ وَالرّجُوعِ وَمَا تَحَمّلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهّ- ﷺ -فِي نَفْسِهِ دَخَلَ عَلَى النّاسِ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ .حَتّى كَادُوا يُهْلِكُونَ.

فَلَمّا رَأَى سُهَيْلٌ أَبَا جَنْدَلٍ قَامَ إلَيْهِ فَضَرَبَ وَجْهَهُ وَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ ثُمّ قَالَ: يَا مُحَمّدُ قَدْ لَجّتْ الْقَضِيّةُ بَيْنِي وَبَيْنَك قَبْل أَنْ يَأْتِيَك هَذَا ؛ قَالَ: " صَدَقْتَ" فَجَعَلَ يَنْتُرُهُ بِتَلْبِيبِهِ وَيَجُرّهُ لِيَرُدّهُ إلَى قُرَيْشٍ ، وَجَعَلَ أَبُو جَنْدَلٍ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَأُرَدّ إلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي ؟! فَزَادَ ذَلِكَ النّاسَ إلَى مَا بِهِمْ .

فَقَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ:" يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنّ اللهّ جَاعِلٌ لَك وَلِمَنْ مَعَك مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، إنّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللهّ وَإِنّا لَا نَغْدِرُ بِهِمْ" .

قَالَ فَوَثَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ مَعَ أَبِي جَنْدَلٍ يَمْشِي إلَى جَنْبِهِ وَيَقُولُ: اصْبِرْ يَا أَبَا جَنْدَلٍ فَإِنّمَا هُمْ الْمُشْرِكُونَ وَإِنّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ .

يقول ذلك .. وَيُدْنِي قَائِمَ السّيْفِ مِنْهُ ! لعله يأخذ السيف من عمر .. ليقتل أباه!

قَالَ عُمَرُ : فَضَنّ الرّجُلُ بِأَبِيهِ وَنَفَذَتْ الْقَضِيّةُ١ .

وهو موقف يدلل على احترام القيادة الإسلامية للعهود والمواثيق.. ولما يتأثر رسول الله ﷺ بحال " أبي جندل" بحيث يخل بالصلح..أو يجعل من ذلك مادة إعلامية للعدو ينشرها يمنة ويسرة لتشويه والتشويش.

المطلب الثامن : احترام المعارضة النزيهة:

بعد الاتفاق على بنود الصلح بين رسول الله وسهيل بن عمرو وقبل توثيقها في المسودة، جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَى رَسُولَ اللهَّ- ﷺ – فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ ؟

قَالَ : "بَلَى " .

قَالَ : أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟

---

١ ابن هشام ٢ / ٣١٨

قَالَ: " بَلَى" ؟

قَالَ : فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: " يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا" .

فَانْطَلَقَ عُمَرُ فَلَمْ يَصْبِرْ مُتَغَيِّظًا فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ ؟

قَالَ : بَلَى .

قَالَ :أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ ؟

قَالَ: بَلَى .

قَالَ : فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ؟.

فَقَالَ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا١ .

والحق أن عمر بن الخطاب لم يكن الشخصية الوحيدة المعارضة لبنود الصلح ، بل كانت جماعة الصحابة تقريبًا معارضة لهذه البنود، خاصة تلك البنود التي بموجبها يلتزم الرسول ﷺ برد من جاءه من قريش مسلمًا ولا تلتزم قريش برد من جاءها من المسلمين مرتدًا إضافة إلى البند الذي يقضي بعودة المسلمين هذا العام دون عمرة .. وبرز من الصحابة المعارضين لهذه الاتفاقية قيادات إسلامية لها وزنها بين قومها منهم سعد بن عبادة سيد الخزرج وأسيد بن حضير سيد الأوس..

وذهبت جماعة من المعارضين إلى حضرة رسول الله ﷺ لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجددًا للصلح إلا أن النبي ﷺ بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين، وأنه نصر لهم٢ وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجًا ومخرجًا..

وبهذا يتبين أن النبي ﷺوضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة، حيث قرر ذلك بقوله وفعله، وهو –والله أعلم– إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم

١ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٣٣٣٨)

٢ انظر: محمد أحمد باشميل: صلح الحديبية ٢٧٠.

وهذا الهدي النبوي الكريم بيَّن أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقدًا لموقف حاكم من الحكام، أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر.

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله ﷺ أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء، وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيب صاحبها في غياهب السجون٢ .

المطلب التاسع : التحلل من الإحرام وحلم القائد على جنوده :

لما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لاصحابه: " قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا "٣.

فَمَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ !! حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.. فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ..

فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

يَا نَبِيَّ اللهَّ أَتُحِبُّ ذَلِكَ .. اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ.

فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ [خِرَاشَ بْنَ أُمَيّةَ بْنِ الْفَضْلِ الْخُزَاعِيّ]، فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا ٤.

وحَلَقَ رِجَالٌ ، وَقَصّرَ آخَرُونَ . فَقَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ: "يَرْحَمُ اللهُّ الْمُحَلّقِينَ " .

قَالُوا : وَالْمُقَصّرِينَ يَا رَسُولَ اللهّ ؟

قَالَ : "يَرْحَمُ اللهُّ الْمُحَلّقِينَ ".

قَالُوا : وَالْمُقَصّرِينَ يَا رَسُولَ اللهّ ؟

---

١ انظر: عبد الله محمد الرشيد ٤٩٥.

٢ انظر: محمد عبد القادر أبو فارس : غزوة الحديبية ص١٣٤، ١٣٥، علي محمد الصلابي ٢/ ٢٩١

٣ ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٣٣٤

٤ ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٣٣٤، ابن هشام ٢ / ٣١٩

قَالَ : "يَرْحَمُ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ ".

قَالُوا : وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِّ ؟

قَالَ :"وَالْمُقَصِّرِينَ " ١ .

وفي هذا الموقف الشهير في صلح الحديبية تستوقفنا عدة دروس أهمها :

١ – في هذا المشهد يتجلى الحلم النبوي بالجنود، فالقيادة الإسلامية تعرف جيدًا طبيعة الحالة النفسية التي يمر بها المسلمون جراء عقد هذا الصلح الذي في ظاهره إجحاف بأبسط حقوق المسلمين ..

٢ – كان رأي أم سلمة سديدًا ومباركًا، حيث فهمت رضي الله عنها وعن الصحابة أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقهم، وأنه يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة، في حق نفسه، فأشارت على النبي ﷺ أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبي ﷺ صواب ما أشارت به ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبق بعد ذلك غاية تنتظر، فكان ذلك رأيًا سديدًا ومشورةً مباركةً، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأي سديد٢ كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل ويعمل النبي ﷺ بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته٣

٣– أهمية القدوة العملية، فقد دعا رسول الله ﷺ إلى أمر وكرره ثلاث مرات، وفيهم كبار الصحابة وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، فلما قدم رسول الله ﷺ على الخطوة العملية التي أشارت بها أم سلمة تحقق المراد، فالقدوة العملية في مثل هذه المواقف أجدى وأنفع٤

---

١ ابن هشام ٢ / ٣١٩

٢ انظر: عدنان النحوي : ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، ١٦١.

٣ انظر: محمد الديك ٢٧٣، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٢٩٢

٤ انظر: محمد السيد الوكيل: تأملات في السيرة النبوية ٢١١، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٢٩٢

❊ ❊ ❊

obeikandl.com